وقائع تأثرها قصصي

السر

بقلم محمد مصطفى حمام

دخلت على الباشا والمجلس حافل والسرور شامل ، فلقيني بما عود زائريه من بشاشة وترحيب ، وأقبل بعدي آخرون يخلفون أعماراً وألواناً ، فمنهم الشيخ العتيق المحطم والفتى الأنيق المهندم ، ومنهم الحضري الناعم والفلاح الخشن ، فتقبل الجميع بقبول حسن ، وأفاض عليهم من عطفه مثل ما أفاض علي

وجاء الخادم يبشر بزائر جديد شمرت عند سماع اسمه بكثير من السرور ، فهو اسم أحد السراة الظرفاء الذين سمعت عنهم دون أن ألقاهم ، وما كان أشوقني إلى هذا اللقاء !

ولم ينتظر الزائر اذن الباشا بالدخول ، بل أقبل في أثر الخادم ، وإذا نحن نستقبل رجلا سمهري القامة ، بهي الطلعة ، وافر الحظ من المهابة والروعة ، ولقد اهتز له المجلس تعظيما وإكباراً ، إلا الباشا فلم يعبأ بمقدمه ، ولم ينشط لاستقباله ، بل صافحه وهو لاصق بكرسيه ، ثم أشاح بوجهه عنه ، وأقبل بالحديث على سواه

وأخذتني من هذا اللقاء والسيء دهشة وعجب ، وجعلت ألتمس للأمر كثيراً من العلل

قلت لنفسي : قد يكون القادم من الأنسباء أو ذوي القربى ، فلا حاجة بصاحب الدار إلى المبالغة في تكريمه ، أو لعل اقتحامه المجلس دون انتظار الاذن هو الذي أغضب الباشا عليه

ورأيت جو المجلس قد أظلم بعد استقرار الضيف الجديد في مكانه ، وبدا على الباشا ضيق وضجر ، وحاول الرجل أن يظفر من صاحب البيت بلفتة إليه ، أو إقبال عليه ، فلم ينل إلا جفاء وإعراضاً

ثم انحنى على الباشا يحاول أن يسر إليه حديثاً ، فنهره كما ينهر السائل ، وصاح به وشرر الغضب يتطاير من عينيه :

لقد انقطع ما كان بيني وبينك ، فلا تمكر صفاء مجلسي بقدومك ، ولا تحاول استرداد مودتي فذلك ما لن يكون

وانصرف الزائر خاسئ البصر ، لا يكاد يرى مما حوله شيئاً ، وودعناه راثين لحاله ! وأخذ المجلس يتبدد ، حتى لم يبق إلا وصاحب الدار ، فلما هممت بالانصراف استبقاني

قال الباشا : لعلك أسأت الظن بأدبي ؟

قلت : معاذ الله

قال : أظنك في دهشة من سوء لقائي لضيفي ، وربما أحببت أن تعرف السر

قلت : لا أرى في معرفته بأساً

قال : لا يزال الصديق محباً إلى قلبك ، وفيح القذى في عينك ، حتى تكشف لك الأيام منه عن عورة لا تستطيع الاغضاء عنها ، فحينئذ يومئذ من ذنب إذا سقط عندك مقدار وتمكن من نفسك احتقاره

هذا رجل صاحبني خمسة أعوام كاملة ، ملأ في خلالها جوانب قلبي ، واستأثر دون الأصدقاء بحبي ، وجمعت بي مجالس بعضها لله وبعضها للشيطان ، وفي أمثال هذه المجالس أسلم بالمال وأكون المتلاف المبذال

وكان هذا الرجل زميلي في كل هذه المجالس ، ودليلي إلى الخير في أكثر الأحيان

وقادني إلى بيت في حي من أجل أحياء المدينة ، نادمنا فيه نسوة ثلاثاً كأنهن الحور العين ، فقطفنا منهن ورد الخدود ودعبنا غصون القدود ؛ وصار هذا البيت معهد غرامنا نسعى إليه بين الحين والحين ، ولكن في جنح من الليل ، وفي غير من الجيران

وما هي إلا أشهر معدودات ، حتى علمت علم اليقين أن هذا البيت الذي نعبث بنسائه وناهو ، هو بيت صاحبي دون سواه وأن ندماءنا من امرأته وقريباته ! هن اللائي نغازلهن ونقبلهن وهن اللائي ينلن مني أجر العبث بهن ، أدفعه سخياً كريماً ، ويتقبله راضيات فرحات !

ولقد أخذني من هذه الحقيقة ذهول وفزع ، فقد تكشف لي صدق عن نفس خبيثة وعرض ممزق !

قلت : فهلا كاشفته بما علمت من دخيلته ؟

قال : لقد كان عذره أقبح من ذنبه ، فقد أفهمني أنه وقد